البحث الخامس

الصابئة المندائيون وشيء عن الديانة الإيزيدية

زرت جبل سنجار ومناطق الشيخان والقوش وقراقوش وبحزاني برفقة صديق من الطائفة الإيزيدية... وزرنا معبدهم في الشيخان في قلب جبل والذي يسموه لالش، وزرنا قبر عدي بن مسافر، ولاحظت أن رجال دينهم يلبسون الملابس البيضاء التي تشبه الرستة (اللباس الديني للصابئة المندائيين)، ولاحظت أن رجل الدين ممسك بالعصا التي تشبه المركنة عند الصابئة المندائيين، وأوجه تشابه عديدة وأوجه خلاف عديدة.

والإيزيديون طائفة كتومة منعزلة عن الغرباء مثل المندائيين أيام زمان، كذلك كل ما كتب عنهم أما عن السماع من الآخرين أو نقل من الآخرين...

زرتهم في الشيخان برفقة رئيس طائفة الصابئة المندائيين الريش أُمة ستار جبار حلو ورفقة عدد من مسؤولي الطائفة بدعوة كريمة من أميرهم تحسين بك ورئيسهم الديني بابا شيخ وكانوا في غاية الكرم والوداعة، وزرنا معبدهم لالش ومرقد عدي بن مسافر، والتقينا بعدد من مثقفيهم، وكان يومًا جميلاً...

أغلب الإيزيديين يعيشون في العراق وسوريا، وهناك مجموعات تعيش في تركيا وألمانيا وأرمينيا وجورجيا، يرى عدد من الباحثين أن الديانة الإيزيدية هي امتداد للديانة المندائية والبابلية والزرادشتية والمانوية، فهي خليط من هذه الديانات، ويرى آخرون أنهم قوم انحرفوا عن الدين الإسلامي جذورهم هندوأوربية... ولغتهم الكرمانجية إحدى اللهجات الكوردية، ومعظمهم يجيدون اللغة العربية والكردية، وكتبهم الدينية مكتوبة باللغة السريانية القريبة جدًا من اللغة المندائية، أي إحدى اللهجات الآرامية...

يقدسون دينيًا طاووس ملك وعدي بن مسافر ، الديانة الإيزيدية مثل الديانة المندائية غير تبشيرية ، يؤمن الإيزيديون أنهم دين توحيدي قديم من زمن آدم وحواء ، قبلتهم الشمس ، ويؤمنون بتناسخ الأرواح ويصومون أربعين يومًا في السنة.

مثلما احتمى المندائيون في مراحل من الزمن بأهوار جنوب العراق ؛ تقوقع الإيزيديون في جبل سنجار في الموصل ، وفي القرى المحيطة بهذا الجبل لحماية أنفسهم ودينهم من الغزوات وحملات الإبادة الجماعية التي تعرضوا لها عبر التاريخ ، وأخرها ما قامت به داعش من احتلال جبل سنجار وقراهم وقتل أعداد كبيرة منهم وتخريب قراهم وسبي نساءهم ، وحاليًا أعداد كبيرة منهم هاجرت قسرًا إلى كردستان العراق ومناطق متفرقة من العالم طلبًا للحماية والأمان.

يعتقد الإيزيديون أن إبليس أول الموحدين بالله لأنه لم يسجد لآدم رأس السلالة البشرية ، وأن الله جل جلاله أراد أن يختبر الملائكة ، وقد نسوا أن السجود لله وحده ، فسجدوا إلى آدم وهو بشر في حين أن إبليس نجح في هذا الاختيار ولم يسجد لآدم ، وهو بذلك لم يعصَ أمر خالقه ، لأن ذلك كان اختبار للملائكة.

يؤكد الإيزيديون أنهم تراث عراقي أصيل أصلاً وجذرًا ولكن اختلف الباحثون في أصل تسميتهم فمنهم من قال إنها مشتقة من يزوان (الله) ، ومنهم من قال إنها مشتقة من اسم (يزاتا) أي المقدس ، ومنهم من نسبهم إلى يزيد بن معاوية الأموي ، وآخرين نسبوهم إلى يزيد بن أبي أنيسة في البصرة ، ويقال إن اسم الإيزيديين تركز بعدما دخل في هذا الدين أعداد كبيرة من الجيش الأموي المنهزم في معركة الزاب بقيادة أخر خلفاء بني أمية مروان الثاني عام ٧٥٠ ميلادية ، والقائد العباسي أبو مسلم الخرساني يوم سقوط الدولة الأموية وتأسيس الدولة العباسية في بغداد.

ظهر في القرن الثاني عشر ميلادي رجل صوفي من السلالة الأموية من أصول سورية لبنانية، قام هذا الشيخ الصوفي بتحديث الديانة الإيزيدية كديانة لها ميراث آشوري مستحدث من بابل وربطها بالديانة الحنفية لنبي الله إبراهيم الخليل كما يدعي بعض الباحثين.

هنا اختلاف الباحثين حول الديانة الإيزيدية يؤكد لنا أن ما كتب عنهم من المؤرخين الأوائل غير دقيق وغير محايد ولأنهم غير ملمين بالدين الإيزيدي ولم يتعايشوا معهم ويقفوا على دقائق الأمور، واعتمادهم على المرورياات من القصص والأحاديث والأساطير التي ينسجها ويتداولها الناس عنهم دون الاستناد إلى وثائق.

كذلك انغلاقهم وخوفهم من الغرباء وإحاطتهم ديانتهم بسرية تامة، وثمة سبب آخر أنهم سابقًا اعتمدوا على النقل الشفوي لنصوصهم الدينية لقناعتهم أن الدين والنصوص والتعاليم الدينية تكون محفوظة في الصدور وليس في الكتب.

وأن الخلق والتكوين طبقًا لما ورد في الميثولوجيا الإيزيدية أنهم ينحدرون من الرجل آدم فقط، وبقية البشر من آدم وحواء، تقول الأسطورة إن آدم وحواء اختلفا حول عائدية الجنس البشري لأي منها، فوضعت حواء بويضتها في قارورة وأحكمت إغلاقها ووضع آدم حيامنه في قارورة مماثلة وأغلق أحكامها، وبعد فترة من الزمن فتحت حواء قارورتها فوجدت أن البويضة قد فسدت وتلفت، ثم فتح آدم قارورته فوجد طفل حي فسموه شيت الحي ابن آدم، بعدها دعى آدم ربه أن يبعث لشيت زوجة من الحوريات، فتزوجها فأنجبت نسلاً نقيًا طاهرًا سموا أنفسهم بالإيزيدية.

يؤكد لنا بعض الباحثين أن الدين الإيزيدي دين نابع من بلاد ما بين النهرين وأن ركائزه الأساسية مستمدة من الدين البابلي في الألف الثالث قبل الميلاد وهناك رأي أنهم يبجلون الإله نابو البابلي في مدينة نمرود شمال العراق حيث معبده الرئيسي (يزيدا)، ويؤكدون أن اسمهم مشتق من اسم هذا المعبد، لأن

الإله نابو كان يعبد في بلاد آشور التي تشمل مناطق الزا بين الأعلى والأسفل ومنطقة الشيخان وبحزاني وبعشيقه والقوش، وأن للإله نابو هيللاً في النمرود والقريبة من الشيخان ومعبد لالش الإيزيدي... وبسبب سقوط بابل واجتياح الغزاة بقيادة كورش بلاد ما بين النهرين تعرضت الأديان للاضطهاد والقمع واضطروا للفرار إلى أعالي الجبال والكهوف.

أما قصة الخلق والتكوين عند الإيزيديين تقول كما يرويها الباحثين: كانت هناك لؤلؤة عظيمة بيضاء، أمر الله أن ترمى هذه اللؤلؤة في المياه فتناثرت ومنها تشكلت السماء والأرض والنجوم، ثم خلق الله طاووس ملك ومنحه القوة والحكمة وتنفيذ أوامر الله وكلفه مهمة بناء الكون وخلق معه ست ملائكة مساعدين...

اهتزت الأرض اهتزازًا شديدًا فنزل بأمر من الله طاووس ملك في مركز لالش متخذًا شكل طاووس عظيم بسبع ألوان زاهية وهبها للأرض فكانت النباتات والحيوانات وهذا الجمال كله.

ثم تقول الحكاية إن طاووس ملك صعد إلى السماء والتقى بآدم وكان جسدًا بلا روح فأعطاه نفسًا من روحه فبعث الحياة، ثم قال له انظر إلى الشمس فهناك من خلقها وهو أعظم منها وعليك عبادته وعلمه الأسماء والوصايا وكل اللغات... بعدها خلق الله حواء زوجة لآدم وقد شرحنا كيف اختلفا ولماذا يعتبر الإيزيديون أنهم أبناء آدم فقط وبقية البشر أبناء آدم وحواء.

توجد في المكتبة العربية عدد محدود جدًا من الكتب التي تتحدث عن الإيزيدية والدين الإيزيدي أهمها ما كتبه الباحث إسماعيل بك عنهم وما كتبه الباحث زهير كاظم عبود المقيم في السويد حاليًا والكاتب أحمد تيمور، كذلك كتب عنهم المؤرخ العراقي عبد الرازق الحسني، وقد تجنى عليهم كما تجنى على الصابئة المندائيين، كذلك تجنى عليهم الكاتب نوري بك بكتابه (عبدة الشيطان)، كذلك كتب عنهم الباحث جورج حبيب وهناك من أنصفهم وهناك من أجحف بحقهم

بدون دليل ، الكاتب المنصف يجب أن يستند في بحثه على وثائق موثقة ومحفوظة بأمانة ومصدقة مكتوبة في الزمن الذي يتحدث عنه ويبحث فيه، أو أن هناك دلائل أركولوجية مثل منحوتات أو مخطوطات على الحجر مثلاً ، وآثار مثل آثار الحضارة السومرية والبابلية والفرعونية والفارسية والإغريقية والرومانية، أو ما كتبه كتاب أمناء عاشوا ذلك الزمان مع هذه القومية أو هذا الدين معهم وفي وسطهم ، وسمعوا منهم ورأوا بعيونهم وكتبوا بدقة وأمانة لا نقلاً عن المروريات أو هذا ينقل من ذلك وقال فلان وقال علان ، حتى الكتب الدينية ليست دليلاً قاطعًا لأنها قصص أنت تصدقها لإيمانك بهذا الدين ، لكن الآخرين يشككون بها ويقولون هات الدليل الراسخ.

نعود إلى الإيزيدية وما كتبه عدد من الباحثين وإن اختلفت وجهات نظرهم كثيرًا لاعتمادهم على المروريات من القصص والاستماع إلى عدد من الناس الذين يتناقلون الأساطير والحكايات وكثير منها من تأليفهم أو ينقلوها نقلاً غير أمين ، وكان بإمكانهم الاتصال بالطائفة الإيزيدية رغم تكتمهم وخشيتهم من الغريب، لكن ما شاهدته أن أميرهم ومثقفيهم أناس متفتحين وبيوتهم ومضائفهم مفتوحة للأخيار للمناقشة والإطلاع وحب التعليم ، صحيح هناك رجال دين متشددين يوصون بالكتمان والاحتفاظ بالعقيدة بالصدور ، وعدم الجواز بالتحدث عنها أمام الأغراب في الأديان الأخرى ، والمشكلة أن المثقفين الإيزيديون لا يجرؤون على الكتابة والتفسير مهابة رجال الدين ، وعلينا أن نعلم أن الإيزيديين ناس رعاة غنم يسرحون بأغنامهم في المروج الخضراء في مناطقهم، فهم غير مستقرين ولهذا فهم غير متعلمين. ولكن المثقفون منهم وكثير منهم يساريون علمانيون ممكن أن يستفادوا من التراث الإيزيدي الذي يملك خزيناً من الحكايات والقصص والأساطير والصلوات والتراتيل والشعر ، وأنا رأيت رجل دين يدور حول قبر عدي بن مسافر ويحكي أحلى الكلام والمواعظ، لحد الآن لم يكلف أحد الباحثين نفسه ويبذل جهدًا بالوصول إلى حقيقة تكون الدين الإيزيدي عبر الزمن ، هناك عدد من الكتاب أجحفوا بحق الإيزيدين والدين

الإيزيدي وحاولوا تشويه الصورة الحقيقية لهذا الدين والحط من مكانة الإيزيدين في المجتمع العراقي وتعمدوا الإساءة لهم وتشويه سمعتهم ظلمًا وعدوانًا، ومنها ما يسمونه في الموصل (ليلة الكشفة) المزعومة والتي تدعي ظلمًا وبهتانًا أن الإيزيدية في هذه الليلة يختلط عندهم الحلال والحرام، هذه قصة نسجها عليهم من لا ذمة له ولا ضمير، مثلما نسجوا عن الصابئة المندائيين ظلمًا وعدوانًا قصصًا ما أنزل الله بها من سلطان، مثل ادعائهم كذبًا وزورًا أن الصابئة المندائيين يخنقون المحتضر، وهذه كذبة أطلقها مرضى النفوس الحاقدون المتطرفون...

فالصابئة المندائيون عندما يصل الإنسان المندائي نهايته ويبدأ بالاحتضار؛ رجال الدين يلبسونه الرستة (القماشي) أي الملابس الدينية البيضاء لكونها تمثل النور، ويطهرونه بالماء الجاري الصافي ليكون جسمه طاهرًا، ويحرسونه ويعتنون به عناية فائقة، ويلبون كل طلباته ووصاياه، ويقرأون عند رأسه الابتهالات والصلوات وبوث (آيات) من كتابهم المقدس الكنزا ربا التي تعده بحياة ثانية أبدية في عالم الأنوار (الجنة) طالما كانت حسناته أكثر من خطاياه، ويستغفرون له ربه أن يرحمه ويغفر له، لأن الدين المندائي يقبل التوبة والمغفرة عند رب كريم غفار رحيم.

اختلف الحال حاليًا عند الأقليات، فأصبحت هناك مراكز ثقافية وإصدارات ومجلات ثقافية وصحف مختصة بالأقليات يكتب فيها أبناء الأقليات والمنصفين من المثقفين العراقيين، تطور حاليًا الشعب الإيزيدي الذي هو جزء من الشعب العراقي، وركب مركب العلم والثقافة والتطور والرقي المدني، ولهذا هناك نوعان من الكتاب؛ الأول كتاب محايدين أصحاب ذمة وضمير وأخلاق كتبوا بأمانة وصدق وبمهنية فأعطوهم حقهم واقتربوا كثيرًا من الحقيقة رغم وجود فاصل زمني كبير بين نشوء الإيزيدية والعصر الحديث، أما النوع الثاني من الكتاب فكان منحازًا متطرفًا يقصد الإساءة والحط من قيمة هذه الطائفة المسالمة

إرضاءً لزعيم سياسي أو رجل دين أو جهة مغرضة تبث الفرقة بين أبناء الشعب الواحد.

عبر التاريخ دائمًا يكون الباحث مقيد في بحوثه من قبل السلطة القوية ومن قبل رجال الدين المتنفذين في السلطة، وخاصة في الدول المتخلفة حضاريًا، لهذا معظم كتب التاريخ كتبت بلغة القوي المسيطر الذي يفكر إلغاء الأقليات وتحجيمها وقتل الحقيقة في تاريخهم، وكل المظاهر الإنسانية والإيمانية والتوحيدية، وهذا ما تعرَّض له الصابئة المندائيون والإيزيديون، أضف لذلك حملات الإبادة والاضطهاد الديني، وخير مثال على ذلك مذابح سنجار وتهجير الإيزيديين من مناطق سكناهم قسرًا، وما تعرَّض له الصابئة المندائيون في مذبحة الشوش في عربستان على أيدي المتطرفين.

من الضروري أن يكتب التاريخ بلغة منهجية نقدية علمية يستبعد الخوف وتأثير السلطة وكثير من العقول المتطرفة المتشددة التي تعتبر دينها ومنهجها هو الصحيح لا غير، إن أهم الكتب الدينية لطائفة الإيزيدين هو كتاب (الجلوة) وفيه مجموعة من المبادئ عن الله رب العالمين وديمومته وقدراته على الخلق، ومن الضروري إجلال الخالق وحفظ شرائعه ووصاياه.

أما الكتاب الثاني فهو مصحف لالش، وهي عبارة عن حكم ونصائح الملك طاووس يظهر فيها مدى قوته وقدراته وخدماته للدين الإيزيدي، وحقيقة الأمر عند زيارتنا إلى لالش ولقاءنا بالأمير تحسين بك وبابا شيخ وعدد من المثقفين، لم نشاهد كتاب الجلوة ولا مصحف لالش، وعندما سألناهم أجابوا لدينا مجموعة كبيرة من الأوراق التي كتبت فيها التعاليم والوصايا ولدينا الرغبة في وضعها في كتاب... ولكن هناك مشكلة مع رجال الدين المتشددين الذين يرغبون ببقاء أبناء الطائفة الإيزيدية على حالهم يتناقلون هذه التعاليم شفاهًا... بينما نجد أبناء طائفة الصابئة المندائيين ورجال دينهم يتسابقون لنشر تعاليمهم...

وهذه مقتطفات من كتاب الجلوة المقدس عند الإيزيديين:

– لا تحلفوا كذبًا بالشمس والقمر... ولا تحلفوا كذبًا بأي نور.

– من نوري تتدفق كل الأنوار.

– أنا ربكم أبارك أهل الأرض مع أول إشعاع للشمس كل يوم أباركم مرة واحدة وفي عيد نيروز سبع مرات، وأنزل عليكم رحمتي.

– أيها الناس صلوا لنا مرتين في اليوم، واقرأوا الأدعية بإيمان عميق في قلوبكم، واذكروني دائمًا، أنا ربكم وخالقكم وإلهكم... أنا الله لا شريك لي.

– إني أنا الله يوم السبت خلقت العرش والزمان وفي يوم الأحد خلقت الأفلاك ودائرة الزمان ونظمتها، وخلقت الشمس والقمر يوم الاثنين وخلقت زحل والأرض يوم الثلاثاء، وملأتها بالحوريات والبشر أمرت أن يكون لقسم منهم السعادة والخير، ولقسم الشقاوة والفقر، وفي يوم الأربعاء خلقت المريخ وجعلته مثل الأرض، وفي يوم الخميس خلقت الجبال، ويوم الجمعة خلقت السيل وأمطرت منها مطر حسب ما أشاء. وأنا الذي خلقت العناصر الأربعة النار والهواء والماء والتراب وجعلتها واسطة لديمومة الحياة، وأنا الذي خلقت الألوان البهيجة كلها، وخلقت الليل والنهار والصحة والمرض... أنا خالقكم جميعًا وقد أحسنت خلق السماوات والأرض ورفعت السماء بلا عمد، وبسطت الأرض، لقد أنزلت لكم الجلوة وفيها تعاليمي والوصايا وفق ما تقتضيه مصالحكم وحياتكم لتكون لكم مرشد، اعملوا الصالحات وتجنبوا عمل السيئات.

هذا باختصار شديد بعض مما ورد في كتاب الجلوة المقدس (أي مقتطفات مختصرة سريعة من الكتاب).